بنية النص الشعري القديم أولى ماستر أدب قديم (س1)

المحاضرة الرابعة: **الرحلة وأقسامها**

**عُرف** العرب بالتنقل والترحال بسبب بداوتهم، فهم دومًا يحنون إلى الوطن ولا يكادون ينسونه لما يمثله من كرم وعزة، ولنا في الشعر الجاهلي أصدق النصوص المتعلقة بالبيئة والتراب، فالحياة عندهم رعي للحيوانات كالشياه والإبل، فإن قلَّ الماء أو أجدب راح الجاهلي يجوب الصحراء بحثًا عن الكلأ، ولا مراء أنه يجد الكثير من العنث والمشقة في رحلاته، فالناقة تسير على الدوام لتحقق له وجوده في الفلاة.

إن الدارس لحياة العرب الدينية يرى أن حبَّ الديار والتعلق الروحي بها يوحي بالكثير من الطقوس التي تبارك السفر، فالتراب يجسد حمى القبيلة وعزتها وعليه درج الأباء، ومن حبَّات الرمل نسجوا أساطيرًا لحياتهم وخرافات لحكمهم، يقول طرفة بن العبد معللاً هذه الفكرة:

|  |  |
| --- | --- |
| وإني لأمضي الهمَّ عند احتضاره | بعوجاء مرقال تروح وتغتدي |

لقد أحب الجاهلي الرحلة ووقعت من نفسه موقعًا حسنًا فإذا به يختلي مع حيوانه ليتخذه رفيقًا كالناقة والفرس أو يظل مستفردًا كالنسر والعقاب والوعل والثور الوحشي والأتان والحية والعقرب، وكأن صوت الشاعر المنفرد السارد يتخذ من حيواناته جمهورًا صامتًا عنه حكم الحياة، فهو أشبه بالمعلم. إنَّ إقرار عنترة بن شدَّاد بالسفر فيه هروب إلى الفلاة طالبًا خلوته، متعذرًا لعلبة حين خروجه:

|  |  |
| --- | --- |
| أطوي فيا الفلا والليل معتكر | وأقطع البيد والرمضاء تستعر |

لتشاهد سباع البَّرِّ في تربتها المحرقة، المستعرة، مصرِّحًا بارتباطه بالسيف الذي به يقهر الأعداء ويروع قلوبهم الجبانة. إنه حلم جميل ولكن يا حسرتاه... فقد ظل شاعرنا باحثًا عن هويته في مجتمع لا يؤمن إلا بالقوة والإغارة المستمرة بين القبائل المتنازعة.

|  |  |
| --- | --- |
| ولا أرى مؤنسا غير الحسام وإن | قل الأعادي غداة الرّوع أو كثروا |
| فحـاري يا سباع البرِّ من رجـل | إذ انتصى سيفه لا ينفع الـحـذر |
| ورافقيني ترى هامــا مـغـلقة | والطير عاكفة تـمـسـي وتبتكر |

وليس يخفي على الشاعر الجاهلي ما للرحلة من خوف ينتاب المشاعر وجزع ترجف له الأكباد. قلق مهول سكن قلب النابغة حين رأى أن الركاب سترحل في غد متوجسًا خلال تفكيره نبأ الغراب الأسود، الذي يتصل ببيئة العرب الجاهلية لما يمثله من نذير شؤم، فالبصر معلق بالسماء لا بالأرض، قال الشاعر:

|  |  |
| --- | --- |
| زعم البـوارح أنَّ رحلتنا غدًا | وبذاك خبَّرنا الغـراب الأسود |
| لا مرحبا بغـد ولا أهـلا به | إن كان تفريـق الأحبَّة في غد |
| حان الرحيل ولم تودِّع مهددًا | والصبح والإمساء منها موعدي |

لعل قسوة الحياة هي الدافع إلى التغيير طالما أنه يعيش حالة الانقلاب فيسعى إلى الركض وراء ملذاتها، في صراع يقترب به إلى معنى الفتوة والرجولة وقوة الصبر. إن أول ما يثير نفسك ذاك الألم الذي نجده عند الشاعر عندما يرتحل عمن يحب، فهو شعور مسيطر على النفس طالما أنه ظل عاشقًا للطبيعة والحق والجمال.

إنَّ رحلة العربي مغامرة تكتنفها العتمات المظلمة، ولذلك ظل دومًا يبحث عن سيطرته على الطبيعة المحيطة به، يفتش في رمالها وبين كثبانها العفر ووهادها عن أسرار الحياة القاحلة راكبًا ناقته ولو بالليل الدامس، طالما أنه عارف بدروب الصحراء الوعرة. وفي ذلك يقول عبد الملك مرتاض في معرض حديثه عن الإبل:

**كانت الإبل تتخذ للنقل وتصطنع في الأسفار، فكان يرتفق بها في مراتب اجتماعية كثيرة**.

لقد حمل العرب نساءهم في رحلاتهم على هوادج الإبل المصنوعة من الحرائر والعقيلات قاطعين القفار ولم تكن لتركبها إلا نساء المجتمع الثري استئناسًا بوجودهن وحضورهن الذي يمد الشاعر طاقة من الحرص ومواجهة المصاعب. يقول امرؤ القيس:

|  |  |
| --- | --- |
| ويوم دخلت الخدر: خدر عنيـزة | فقالت: لك الويلات إنَّك مــرجلي |
| تقول وقد مال الغبيط بنا مـعـا | عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل |

هي سفريات لا تنتهي لأن ركوب المطايا والصهوات فيه كثير من العنت والمشقة وجمال المتعة للوصول إلى الكشف عن الأسئلة التي باتت تقض مضجعه وتؤلم أحلامه وتركب رأس همومه. يقول المثقب العبدي:

|  |  |
| --- | --- |
| فسل الهم عنك بذات لوث | عذافرة كمطرقة العيون |

وعلى الرغم من أن الحياة ملآى بالحركة والغيطان، حافلة بالسفر والطواف، فالقبائل تنتقل من ماء إلى ماء، ومن سهل إلى آخر، فرعوية العيش تفرض تتبع مساقط الغيث ومواقع الخصب، فكانوا كلما ارتعت إبلهم الكلأ الذي نزلوا به يرتاد لهم لينتقلوا إلى مواقع أغرة، كالحيرة ويثرب ونجد صنعاء ومأرب وكلها مناقط زاخرة بالمراعي.

ويؤكد الراعي النميري وجود أراض للراعي، خاصة بحومل التي ذكرها امرؤ القيس فيقول:

|  |  |
| --- | --- |
| كغراء سوداء المدامع ترتعي | بحومل معطفي رملة وتناهيا |
| لـهـا ابن ليال ودأته بقفرة | وتبغي بغيطان سواه المراعيا |

إن متعة المغامرة وحديث الحداء وسهر الليالي بين عواء ذئب وترقب سارق أو قاطع طريق، هي كلها مخاوف تتقطع لها الأكباد ولا يغمض لها جفن، فالليل مطبق والخطر محدق، وهنا ينبث التفكير في الغدو والرواح بين تصورات واقعية ومعتقدات دينية تُتداول بين الشك واليقين، فنرى أنفسًا مسكونة بها، جس الفناء الذي كلما اقتربت منه تفتحت العيون لتجد صباحًا جديدًا أو موتًا مؤكدًا فيقول عبيد بن الأبرص:

|  |  |
| --- | --- |
| وكل ذي نعمة مخلوسها | وكل ذي أمـل مكدوب |
| وكل ذي غيبة يـؤوب | وغائب الموت لا يؤوب |

إن رحلة العربي إلى مرابع الحرية مملوءة بالصورة الطقوسية التي تجسد الصراع لأجل البقاء، فتراه يرسم بحوافر إبله قلقة ومنفاه وكل ما يساوره من شك وأهوال، حتى كثرت ألفاظهم في البعير مثل "الزمام" و"القلوص"[[19]](http://maaber.50megs.com/issue_december12/literature5.htm" \l "_ftn20" \o ") و"المطية" و"الشدنية". يقول الراعي النميري:

|  |  |
| --- | --- |
| فعجنا لذكرها وتشبيه صوتها | قلاصا بمجهول الغلاة صواديا |

أما المطية فقد ذكرها الراعي النميري في قوله:

|  |  |
| --- | --- |
| وجيف المطايا ثم قلت لصحبتي | ولم ينزلوا أبردتم فتروَّحوا |

أما الشدنية فقد ذكرها عنترة:

|  |  |
| --- | --- |
| فهل تبلغني دارها شدنية | هملَّعة بين القفار تهملج |

لا نحسب أن رحلة الشاعر مجرد نزهة ممتعة، بل محاورة بين الشاعر ونفسه، فقد تعصف به الريح فترديه قتيلاً، وقد تتقطع به الأسباب فيصبح ذكرى منسية، وقد تأتيه ليلة باردة تقضي نحبه، ولست أغالي عظيمًا إن قلت إنَّ الرحلة أشبه بالحلم الجميل، لأن وسائله قد تنعدم وأداوته تفقد مثل "الغبيط" أو "الرحالة" أو "السِّرج" و"الكور".

وحقيق بنا أن نقول إن الرحلة لم تكن بالأمر السهل لأنها بحاجة إلى استعداد قبلي يعرف من خلاله ما نحتاج إليه من مؤونة أو زاد أو معرفة المسافة التي سنقطعها والعقبات التي ستواجهنا، فنبادر إلى تطويعها وجعلها سهلة، فيركب الشاعر كل الأسباب حتى يرى الرحيل أشبه بالعرس الذي تزينه الحنَّاء التي توشي بنانها. وفي ذلك يقول زهير بن أبي سلمى:

|  |  |
| --- | --- |
| وكأنها يوم الرحيل وقد بدا | منها البنان يزينه الحنَّاء |

لقد احتاج الشاعر إلى السفر ليحافظ على بقائه ويحقق قوته متنسمًا عبقه العريق مهتديًا بالنجوم تهديه الطريق مخلفًا وراءه كومة من الحجارة تكون أعلامًا له بعد عودته وقد تغدو أثارًا قديمة ورسومًا بالية. وفي ذلك يصرِّح علقمة بن عبدة بقوله:

|  |  |
| --- | --- |
| هداني إليك الفرقدان ولا حب | له فوق أصواء المتان علوب |

لا تخلو القصائد الجاهلية من وجود الحيوان، فصوره متعددة وأنواعه كثيرة، فهو حاضر في جل المعلقات والقصائد، سواء عند الرعيل الأول كامرئ القيس والأعشى أو عند سواهم مثل المخبل السعدي وعبدة بن الطبيب. ومن خلال النصوص المتواترة التي وصلتنا يبدو أن من عادة الشعراء ذكر الحيوان والتغني بجرأته ووصف قوته واندفاعه والركض وراء حوافره سعيًا إلى اصطياده وقنصه.

إن افتخار الجاهلي بناقة حتم عليه الاعتناء بها، وتوفير كل أسباب الراحة لها، نظرًا لاستعمالاتها المتعددة، فالنوق من أبهى إبل العرب وهي بين غبرة اللون وحمرته وجلودها رقيقة وهي جمال حسنة. قالت العرب:

**الحر من الإبل أطهرها جلدًا، والورق أطيبها لحمًا، والخور أغزرها لبنًا.**

إنها دلالة واقعية معيشية تؤكد معرفة العربي بأنواع الإبل والسعي لفهم طبيعتها وتذوق لحمها وشرب لبنها، فوجدها أفيد له في صحراء مترامية الأطراف، فاتخذها صديقة. يقول الشاعر:

|  |  |
| --- | --- |
| قد أقطع الأرض وهي قفر | وصاحبي بازل شلال |

ومهما يكن، فذكر الرحلة في الشعر القديم له أبعاد كثيرة ودواع ظاهرة وأخرى خفية ما زالت تحتاج إلى دراسات متمعنة تكشف بعض مكنوناتها، وتسبر أغوارها.